التربية الروحية في فكر سعيد النورسي

وجَّه المُصلح التركي الكبير سعيد النُّورسي (1873- 1960م) جزءًا كبيرًا من عنايته إلى مسألة "التَّربية الرُّوحية"؛ أو بالأحرى "التَّزكية". كيف لا؟ وهي مفتاح الفهْم لكلِّ عملية تربوية تتغيَّا إخراجَ جيلٍ قرآنيٍّ ربانيٍّ يُساهم من خلال العمل الإيجابيِّ البنَّاء في خلافة الأرض وعمارتها، والقيام بمسؤوليات الأمانة المُلْقاةِ على عاتقه بحكم اختياره وحمله لها؟!

والواقع أن النُّورْسِي اتجه نحو طلب الحقِّ والحقيقة منذ صغره، أيامَ لجوئه إلى المغارات للاستماع إلى أنين قلْبه وآهاته، وإنابَةِ روحِه ومُناجاتها، حتَّى ذاق طعْم الطَّاعة، ورشف رحيقَ العبادة، واستشمَّ طيب التَّفكُّر، واستفاض في "التَّربية الرُّوحيَّة" والنفسيَّة فوصل إلى الطُّمأنينة والسَّكينة.

وبفضل "التَّربية الرُّوحية" وما تضمنتْهُ من مجاهداتٍ تشبَّع النُّورْسِي بالحقائق المكنونة في القرآن؛ حتَّى أنه وصف كتابه "الكلمات" بأنّه كتابٌ "يبحثُ في علم الحقيقة؛ حقيقة الشَّريعة، التي تمثِّل حكمةِ القرآن الكريم.

تلكم الحكمة التي كانت بالنِّسبة إليه دليلا ومُرشدا، فأعلن على رؤوس الأشْهاد: "لأُبرْهِننَّ للعالم بأنَّ القرآن شمسٌ معنويةٌ لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاءُ نورها".

ضمن هذا السِّياق العام يؤكِّد النورسي أنَّ ثمة ميزة أخرى في الطَّريق المختصر الذي اختطه للسَّالكين من طُلَّاب النُّور، تتعلَّق بكونه "أسلم من غيره، لأنَّه ليس للنَّفس فيه شطحاتٌ أو ادعاءاتٌ فوق طاقتها؛ إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز، والفقر، والتقصير، فيتجاوز حدَّه". ولعلَّ هذا الملمح كثير الشَّبه بفلسفة ابن عطاء اللَّه السَّكندري (658- 709هـ) وبمدرسة الشيخ أبي الحسن الشَّاذُليِّ (571- 656هـ) الصُّوفية؛ خاصة فيما يتعلق بكتاب ابن عطاء اللَّه "التَّنوير في إسقاط التَّدبير"، ذلك أنَّ معنى التَّدبير الذي عناه صاحب "التنوير" هو تدبيرُ الدُّنيا للدُّنيا، أي أن يدبِّر الإنسان في أسباب جمْعها افتخارًا بها واستكثارًا، وكلَّما ازداد فيها شيئا ازداد غفلةً واغترارا. أمَّا تدبيرُ الدُّنيا للآخرة: كأن يدبِّر الإنسان المتاجر والمكاسب، ليأكل منها حلالا ولينعم بها على ذوي الفاقة أفضالا وليصون بها وجهه عن النَّاس إجمالا؛ فذلك هو التَّدبير المحمود الذي يحبُّه اللَّه ورسوله.

وانطلاقا من القرآن الكريم، الذي حثَّ في الكثير من آياته على ضرورة التَّزكية، واتّساقًا مع تركيز الأستاذ النُّورسي على الجانب العمليِّ في "التَّربية الرُّوحيَّة"، أكدَّ بديع الزَّمان أنَّ الطَّرائق إلى الخالق عزَّ وجلَّ كثيرة ومتعدِّدة، لكنَّ مردَّها جميعا إلى القرآن الكريم، ويُتابع قائلا: "وقد استفدتُ من فيض القرآن الكريم طريقا قصيرا وسبيلا سويا هو: طريق العجْز، الفقْر، الشَّفقة، التَّفكُّر".

ويدلّل النُّورسي على طريقه المختصر للسَّالكين بمنطق الثنائيات فـ "العجزُ كالعشْق طريقٌ مُوصِّلٌ إلى الله؛ بل أقرب وأسلم، إذ هو يُوَصِّلُ إلى المحبوبية بطريق العبوديَّة. والفقر مثله يُوصِّل إلى اسم الله (الرَّحمن)، وكذلك الشَّفقة كالعشْق مُوصِّلَةٌ إلى الله إلَّا أنَّها أنفذُ منه في السَّير وأوسعُ منه مدى؛ إذ هي تُوصِّلُ إلى اسم الله (الرَّحيم). والتَّفكُّر أيضا كالعشْق إلا أنَّه أغْنى منه وأسطع نورًا وأرحب سبيلا؛ إذ هو يُوصِّل السَّالك إلى اسم الله (الحكيم)".

وفي الواقع؛ فإن الأمر لا يقتصر على الاختصار فحسب؛ وإنَّما يتجاوزه إلى شرف هذه المراحل الأربعة مقارنة بمثيلاتها في مسالك الآخرين من جهة، وارتباط تحقُّقها في نفس السَّالك بالوقوف على أسرار وتجليات "أسماء الله الحسنى" من جهة أخرى. فإذا كانت طرق "الخفاء" ذات خطوات عشر – كاللطائف العشر – وإذا كانت طرق "الجهر" ذات خطوات سبع – بحسب النفوس السبعة – فإنَّ الطَّريق المختصر الذي اخطته النُّورسي هو عبارة عن أربع خطوات فحسب؛ فهو (حقيقةٌ شرعية) أكثر مما هو (طريقةٌ صوفية)، فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كلّه أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الخلق.

وتأكيدًا على "مركزية التّزكية" في منهج الأستاذ النورسي التّربويّ العمليّ نراه يشدِّد على ضرورة التّزكية بوصفها تُمثِّل المنبع الأول للطّريق الصُّوفي الصحيح. يقول في ذلك: "أمَّا منابع هذه الخطوات الأربعة من القرآن الكريم فهي: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾؛ تُشير إلى الخطوة الأولى (العجز). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ تشير إلى الخطوة الثانية (الفقر). وقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ تشير إلى الخطوة الثالثة (الشفقة). وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ تشير إلى الخطوة الرابعة (التفكُّر).

أمَّا وجوب عدم تزكيَّة النَّفس – أي المبالغة في تعظيمها والافتخار بأعمالها وعدم رؤية تقصيرها – فذلك يقع بحسب النورسي لأنَّ الإنسان بحسب جبلَّته، وبمقتضى فطرته، مُحِبٌّ لنفسه بالذَّات، بل لا يحبُّ إلا ذاته في المقدِّمة. ويُضحِّي بكلِّ شيء من أجل نفسِه، ويمدح نفسَه مدحا لا يليق إلا بالمعبود وحده، بل لا يقْبَلُ التَّقصير لنفسِه أصلا، ويُدافع عنها دفاعًا قويا بما يُشْبِه العبادة، فيصيبه وصف الآية الكريمة: ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فلا بدَّ إذن من تزكيتِها. فتزكيتُها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

وكما أنَّ التَّزكية – بهذا المعنى – ضروريةٌ في الخطوة الأولى؛ فإنَّها ضروريةٌ وواجبةٌ أيضا في الخطوة الثانية المتعلِّقة بالفقر؛ إذ مُقتضى النَّفس الأمَّارة بالسوء أنها تَذْكُر ذاتها في مقام أخْذ الأجرة والحظوظ وتلْتزم بها بشدَّةٍ، بينما تتناسى ذاتَها في مقام الخدْمة والعمل والتَّكْليف. فتزْكيتُها وتطهيرها وتربيتُها في هذه الخطوة هي العملُ بعكس هذه الحالة؛ أي عدم النّسيان في عين النِّسيان؛ أي نسيانُ النَّفس في الحظوظ والأُجرة، والتَّفكُّر فيها عند الخدمات والموت.

والأمر ذاته فيما يتعلَّق بالخطوة الثالثة "الشَّفقة"؛ "فتزكيةُ النَّفس في هذه المرتبة هي في سِرِّ الآية الكريمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾؛ وهي أنْ تعلم بأنَّ كمالها في عدم كمالِها، وقُدْرتَها في عجْزها أمام الله، وغناهَا في فقْرها إليه.

أخيرًا يُشدِّد النورسي على ضرورة وأهمية التَّزكيَّة في الخطوة الرَّابعة (التَّفكُّر)؛ فتزْكِيتُها في هذه الخطوة هي معرفة أنَّ عدمها في وجودِها ووجودَها في عدمِها؛ أي إذا رأت ذاتَها وأعْطت لوجودِها وجودًا، فإنَّها تغرَق في ظلُمات عدَمٍ يسع الكائنات كلّها، كأنَّها اليَرَاعَة في ضيائها الفرديّ الباهت في ظلُمات الليل البهيم. ولكنْ عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقًّا أنَّها لا شيءَ بالذَّات؛ وإنَّما هي مرآةٌ تعْكِسُ تجليات مُوجِدها الحقيقيّ، فتظْفر بوجود غير متناهٍ، وتربح وجود جميع المخلوقات.